

المكى والمدنى

تولى الأمم اهتمامها البالغ بالمحافظة على تراثها الفكرى ومقومات حضارتها ، والأمة الإسلامية أحرزت قصب السبق فى عنايتها بتراث الرسالة المحمدية التى شرفت بها الإنسانية جمعاء ، لأنها ليست رسالة علم أو إصلاح يحدد الاهتمام بها مدى قبول العقل لها واستجابة الناس إليها ، وإنما هى - فوق زادها الفكرى وأسسها الإصلاحية - دين يخامر الألباب ويمتزج بحبات القلوب ، فوجد أعلام الهدى من الصحابة والتابعين ومن بعدهم يضبطون منازل القرآن آية آية ضبطاً يحدد الزمان والمكان ، وهذا الضبط عماد قوى فى تاريخ التشريع يستند إليه الباحث فى معرفة أسلوب الدعوة ، وألوان الخطاب ، والتدرج فى الأحكام والتكاليف ، ومما روى فى ذلك ما قاله ابن مسعود رضى الله عنه : « والله الذى لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت ؟ ولو أعلم أن أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه » (١) .

والدعوة إلى الله تحتاج إلى نهج خاص فى أسلوبها إزاء كل فساد فى العقيدة والتشريع والخلق والسلوك ، ولا تفرض تكاليفها إلا بعد تكوين النواة الصالحة لها وتربية اللبئات التى تأخذ على عاتقها القيام بها ، ولا تسن أسسها التشريعية ونظمها الاجتماعية إلا بعد طهارة القلب وتحديد الغاية حتى تكون الحياة على هدى من الله وبصيرة .

والذى يقرأ القرآن الكريم يجد للآيات المكية خصائص ليست للآيات المدنية فى وقعها ومعانيها ، وإن كانت الثانية مبنية على الأولى فى الأحكام والتشريع ، فحيث كان القوم فى جاهلية تعمى وتصم ، يعبدون الأوثان ، ويشركون بالله ، وينكرون

(١) أخرجه البخارى .

الوحي ، ويكذبون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : ﴿ أءَآذًا مَتًّا وَكُنَّا تَرَابًا وَعَظَامًا
 أءَأْنَا لَمْبَعُونَ ﴾ (١) . ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا
 إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (٢) . وهم ألداء في الخصومة ، أهل ممرارة ولجاجة في القول عن
 فصاحة وبيان - حيث كان القوم كذلك نزل الوحي المكي قوارع زاجرة ، وشهباً
 منذرة ، وحججاً قاطعة ، يحطم وثنيهم في العقيدة ، ويدعوهم إلى توحيد الألوهية
 والربوبية ، ويهتك أستار فسادهم ، ويسفّه أحلامهم ، ويقيم دلائل النبوة ، ويضرب
 الأمثلة للحياة الآخرة وما فيها من جنة ونار ، ويتحداهم - على فصاحتهم - بأن
 يأتوا بمثل القرآن ، ويسوق إليهم قصص المكذبين الغابرين عبرة وذكرى ، فتجد في
 مكي القرآن ألفاظاً شديدة القرع على المسامع ، تقذف حروفها شرر الوعيد وألسنة
 العذاب ، ف « كلا » الرادعة الزاجرة ، والصاخة والقارعة ، والغاشية والواقعة ،
 وألفاظ الهجاء في فواتح السور ، وآيات التحدى في ثناياها ، ومصير الأمم
 السابقة ، وإقامة الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية - كل هذا نجده في خصائص
 القرآن المكي .

وحين تكوّنت الجماعة المؤمنة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر
 خيره وشره ، وامتحننت في عقيدتها بأذى المشركين فصبرت وهاجرت بدينها مؤثرة ما
 عند الله على متع الحياة - حين تكوّنت هذه الجماعة - نرى الآيات المدنية طويلة
 المقاطع ، تتناول أحكام الإسلام وحدوده ، وتدعو إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل
 الله ، وتفصّل أصول التشريع ، وتضع قواعد المجتمع ، وتحّدّد روابط الأسرة ،
 وصلات الأفراد ، وعلاقات الدول والأمم ، كما تفضح المنافقين وتكشف دخيلتهم ،
 وتجادل أهل الكتاب وتلجم أفواههم - وهذا هو الطابع العام للقرآن المدني .

* * *

عناية العلماء بالمكى والمدنى وأمثلة ذلك وفوائده

وقد عنيَ العلماء بتحقيق المكى والمدنى عناية فائقة ، فتتبعوا القرآن آية آية ، وسورة سورة ، لترتيبها وفق نزولها ، مراعين في ذلك الزمان والمكان والخطاب ، لا يكتفون بزمن النزول ، ولا بمكانه ، بل يجمعون بين الزمان والمكان والخطاب ، وهو تحديد دقيق يعطى للباحث المنصف صورة للتحقيق العلمى فى علم المكى والمدنى ، وهو شأن علمائنا فى تناولهم لمباحث القرآن الأخرى .

إنه جهد كبير أن يتتبع الباحث منازل الوحي فى جميع مراحلها ، ويتناول آيات القرآن الكريم فيعين وقت نزولها ، ويحدد مكانه ، ويضم إلى ذلك الضوابط القياسية لأسلوب الخطاب فيها ، أهو من قبيل المكى أم من قبيل المدنى ؟ مستعيناً بموضوع السورة أو الآية ، أهو من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة الإسلامية فى مكة أم من الموضوعات التى ارتكزت عليها الدعوة فى المدينة ؟ وإذا اشتبه الأمر على الباحث لتوافر الدلائل المختلفة رُجِّح بينها فجعل بعضها شبيهاً بما نزل فى مكة ، وبعضها شبيهاً بما نزل فى المدينة .

وإذا كان الآيات نزلت فى مكان ثم حملها أحد من الصحابة فور نزولها لإبلاغها فى مكان آخر ضبط العلماء هذا كذلك ، فقالوا : ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى مكة .

قال أبو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابورى فى كتاب « التنبيه على فضل علوم القرآن » : « من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته ، وترتيب ما نزل بمكة والمدينة ، وما نزل بمكة وحكمه مدنى ، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى ، وما نزل بمكة فى أهل المدينة ، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة ، وما يشبه نزول المكى فى المدنى ، وما يشبه نزول المدنى فى المكى ، وما نزل بالجحفة ، وما نزل ببيت المقدس ، وما نزل بالطائف ، وما نزل بالحديبية ، وما نزل ليلاً ، وما نزل نهاراً ، وما نزل مشيعاً ^(١) ، وما نزل مفرداً ، والآيات المدنيات من السور المكية ، والآيات

(١) كالذى روى فى بعض السور والآيات مثل سورة الأنعام ، وسورة الفاتحة ، وآية الكرسي .

المكيات في السور المدنية ، وما حمل من مكة إلى المدينة ، وما حمل من المدينة إلى مكة ، وما حُمِلَ من المدينة إلى أرض الحبشة ، وما نزل مُجْمَلًا ، وما نزل مُفَسَّرًا ، وما اختلفوا فيه ، فقال بعضهم مدني وبعضهم مكى ، فهذه خمسة وعشرون وجهًا من لم يعرفها ويُمَيِّز بينهما لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى « (١) .

وحرص العلماء على الدقة ، فرتَّبوا السور حسب منازلها سورة بعد سورة ، وقالوا سورة كذا نزلت بعد سورة كذا ، وازدادوا حرصًا في الاستقصاء ، ففرَّقوا بين ما نزل ليلاً وما نزل نهارًا ، وما نزل صيفًا وما نزل شتاءً ، وما نزل في الحَضَر وما نزل في السَفَر .

وأهم الأنواع التي يتدارسها العلماء في هذا المبحث :

- ١ - ما نزل بمكة .
- ٢ - ما نزل بالمدينة .
- ٣ - ما اختلف فيه .
- ٤ - الآيات المكية في السور المدنية .
- ٥ - الآيات المدنية في السور المكية .
- ٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدني .
- ٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكى .
- ٨ - ما يشبه نزول المكى في المدني .
- ٩ - ما يشبه نزول المدني في المكى .
- ١٠ - ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة .
- ١١ - ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة .
- ١٢ - ما نزل ليلاً وما نزل نهارًا .
- ١٣ - ما نزل صيفًا وما نزل شتاءً .
- ١٤ - ما نزل في الحَضَر وما نزل في السَفَر .

(١) انظر « الإتيان في علوم القرآن » للسيوطي (٨/١) ، الطبعة الثالثة للحلبي .

فهذه أنواع أساسية ، يرتكز محورهما على المكي والمدني ، ولذا سُميَ هذا بـ«علم المكي والمدني» .

● أمثلة :

١ ، ٢ ، ٣ - أقرب ما قيل في تعداد السور المكية والمدنية إلى الصحة ، أن المدني عشرون سورة :

- | | | |
|-----------------|------------------|-----------------|
| ١ - البقرة . | ٢ - آل عمران . | ٣ - النساء . |
| ٤ - المائدة . | ٥ - الأنفال . | ٦ - التوبة . |
| ٧ - النور . | ٨ - الأحزاب . | ٩ - محمد . |
| ١٠ - الفتح . | ١١ - الحجرات . | ١٢ - الحديد . |
| ١٣ - المجادلة . | ١٤ - الحشر . | ١٥ - الممتحنة . |
| ١٦ - الجمعة . | ١٧ - المنافقون . | ١٨ - الطلاق . |
| ١٩ - التحريم . | ٢٠ - النصر . | |

وأن المختلف فيه اثنتا عشرة سورة :

- | | | |
|----------------|---------------|---------------|
| ١ - الفاتحة . | ٢ - الرعد . | ٣ - الرحمن . |
| ٤ - الصف . | ٥ - التغابن . | ٦ - التطهيف . |
| ٧ - القدر . | ٨ - البيّنة . | ٩ - الزلزلة . |
| ١٠ - الإخلاص . | ١١ - الفلق . | ١٢ - الناس . |

وأن ما سوى ذلك مكي ، وهو اثنتان وثمانون سورة ، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة .

٤ - الآيات المكية في السور المدنية : لا يُقصد بوصف السورة بأنها مكية أو مدنية أنها بأجمعها كذلك ، فقد يكون في المكية بعض آيات مدنية ، وفي المدنية بعض آيات مكية ، ولكنه وصف أغلبى حسب أكثر آياتها ، ولذا يأتي في التسمية : سورة

كذا مكة إلا آية كذا فإنها مدنية ، وسورة كذا مدنية إلا آية كذا فإنها مكة - كما نجد ذلك في المصاحف .

ومن أمثلة الآيات المكية في السور المدنية « سورة الأنفال » مدنية ، واستثنى منها كثير من العلماء قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) قال مقاتل في هذه الآية: نزلت بمكة ، وظاهرها كذلك ، لأنها تضمنت ما كان من المشركين في دار الندوة عند تأمرهم على رسول الله ﷺ قبل الهجرة ، واستثنى بعضهم كذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) ، لما أخرجه البزار عن ابن عباس أنها نزلت لما أسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

٥ - الآيات المدنية في السور المكية : ومن أمثلة الآيات المدنية في السور المكية « سورة الأنعام » قال ابن عباس : نزلت بمكة جملة واحدة ، فهي مكة إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ ، أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ ، نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، و«سورة الحج» مكة سوى ثلاث آيات نزلت بالمدينة ، من أول قوله تعالى : ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ (٤)

٦ - ما نزل بمكة وحكمه مدني : ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

(٢) الأنفال : ٦٤

(١) الأنفال : ٣٠

(٤) الحج : ١٤

(٣) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣

خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ ، فإنها نزلت بمكة يوم الفتح ، وهي مدينة لأنها أنزلت بعد الهجرة ، والخطاب فيها عام ، ومثل هذا لا يسميه العلماء مكيا ، كما لا يسمونه مدنيا على وجه التعيين ، بل يقولون فيه : ما نزل بمكة وحكمه مدني .

٧ - ما نزل بالمدينة وحكمه مكى : ويمثلون له بسورة الممتحنة ، فإنها نزلت بالمدينة ، فهي مدينة باعتبار المكان ، ولكن الخطاب في ثناياها توجه إلى مشركى أهل مكة . . ومثل هذا صدر سورة « براءة » نزل بالمدينة ، والخطاب فيه لمشركى أهل مكة .

٨ - ما يشبه نزول المكى فى المدنى : ويعنى العلماء به ما كان فى السور المدنية من آيات جاء أسلوبها فى خصائصه وطابعه العام على نمط السور المكية ، ومن أمثلته قوله تعالى فى سورة الأنفال - وهى مدينة : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) فإن استعجال المشركين للعذاب كان بمكة .

٩ - ما يشبه نزول المدنى فى المكى : ويعنى العلماء به ما يقابل النوع السابق ، ويمثلون له بقوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ (٣) . . قال السيوطى : فإن الفواحش كل ذنب فيه حد ، والكبائر كل ذنب عاقبته النار ، واللمم ما بين الحدين من الذنوب ، ولم يكن بمكة حد ولا نحوه (٤) .

١٠ - ما حُمِلَ من مكة إلى المدينة : ومن أمثلته سورة ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (٥) أخرج البخارى عن البراء بن عازب قال : « أول من قدم علينا من أصحاب النبى ﷺ : مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم ، فجعلنا يقرئنا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به ، فما جاء حتى قرأتُ :

(٣) النجم : ٣٢

(٢) الأنفال : ٣٢

(١) الحجرات : ١٣

(٥) الأعلى : ١

(٤) الإنشقاق : (١٨ / ١) .

﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها ، وهذا المعنى يصدق على كل ما حملة المهاجرون من القرآن وعلموه الأنصار .

١١ - ما حُمِلَ من المدينة إلى مكة : ومن أمثلته أول سورة « براءة » ، حيث أمرَ رسول الله ﷺ أبا بكر على الحج في العام التاسع ، فلما نزل صدر سورة « براءة » حمَّله رسول الله ﷺ على بن أبي طالب ليلحق بأبي بكر حتى يبلغ المشركين به ، فأذَّنَ فيهم بالآيات وأبلغهم ألا يحج بعد العام مشرك .

١٢ - ما نزل ليلاً وما نزل نهاراً : أكثر القرآن نزل نهاراً ، أما ما نزل بالليل فقد تبعه القاسم الحسن بن محمد بن محمد بن حبيب النيسابوري ، واستخرج له أمثلة منها : أواخر آل عمران : أخرج ابن حبان في صحيحه ، وابن المنذر ، وابن مردويه وابن أبي الدنيا عن عائشة رضی الله عنها : أن بلالاً أتى النبي ﷺ يؤذنه لصلاة الصبح فوجده يبكي ، فقال : يا رسول الله .. ما يبكيك ؟ قال : « وما يمنعني أن أبكي وقد أنزلَ عليّ هذه الليلة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .. ثم قال :

ومنها : آية الثلاثة الذين خَلَّفُوا ، ففي الصحيحين من حديث كعب : « فأنزل الله توبتنا حين بقي الثلث الأخير من الليل » (٢) .

ومنها : أول سورة الفتح ، ففي البخاري من حديث عمر : « لقد نزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، فقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (٣) ..

(١) آل عمران : ١٩٠

(٢) ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة : ١١٧ - ١١٨) ، وهم الذين قبل الله عذرهم في التخلف بغزوة تبوك .

(٣) الفتح : ١

١٣ - ما نزل صيفاً وما نزل شتاءً : ويمثل العلماء لما نزل صيفاً بآية الكلاله التي في آخر سورة النساء ، ففي صحيح مسلم عن عمر : « ما راجعتُ رسول الله ﷺ في شيء ما راجعته في الكلاله ، وما أغلظ في شيء ما أغلظ لي فيه ، حتى طعن بأصبعه في صدري ، وقال : يا عمر : ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء » ؟ (١) .

ومن أمثله الآيات التي نزلت في غزوة تبوك ، فإنها كانت في الصيف في شدة الحر كما في القرآن نفسه (٢) .

ويمثلون للشتائى بآيات حديث الإفك في سورة النور : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ ﴾ (٣) . . . إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٤) ، ففي الصحيح عن عائشة : « أنها نزلت في يوم شات » .

ومن أمثله الآيات التي في غزوة الخندق من سورة الأحزاب حيث كانت في شدة البرد : أخرج البيهقي في « دلائل النبوة » عن حذيفة قال : « تفرق الناس عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب إلا اثني عشر رجلاً ، فأتاني رسول الله ﷺ فقال : قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب ، قلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق ما قمت لك إلا حياء ، من البرد ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (٥) . .

١٤ - ما نزل في الحضر وما نزل في السفر : أكثر القرآن نزل في الحضر ، ولكن حياة رسول الله ﷺ كانت عامرة بالجهاد والغزو في سبيل الله حيث يتنزل عليه

(١) ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ (النساء : ١٧٦) ، والكلالة كما في صريح الآية : الميت الذي لا ولد له ولا مال يورث .

(٢) وقد حكى القرآن عن المنافقين قولهم : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ (التوبة : ٨١) .

(٥) الأحزاب : ٩

(٤) النور : ٢٦

(٣) النور : ١١

الوحي في مسير ، وقد ذكر السيوطي لما نزل في السفر كثيراً من الأمثلة (١) . .
منها أول سورة الأنفال ، نزلت ببدر عقب الواقعة ، كما أخرج أحمد عن سعد بن
أبي وقاص - وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٢) . . أخرج أحمد عن ثوبان أنها نزلت في بعض أسفاره ﷺ -
وأول سورة الحج ، أخرج الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين قال : « لما نزلت
على النبي ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ
عَظِيمٌ ﴾ (٣) . . إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (٤) . . أنزلت
عليه هذه وهو في سفر ، وسورة الفتح ، أخرج الحاكم وغيره عن المسور بن مخرمة
ومروان بن الحكم قالا : « نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة في شأن الخديبية من
أولها إلى آخرها » .

* * *

● فوائد العلم بالمكي والمدني :

وللعلم بالمكي والمدني فوائد أهمها :

(أ) الاستعانة به في تفسير القرآن : فإن معرفة مواقع النزول تساعد على فهم الآية
وتفسيرها تفسيراً صحيحاً ، وإن كانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ،
ويستطيع المفسر في ضوء ذلك عند تعارض المعنى في آيتين أن يُميِّز بين الناسخ
والمسوخ ، فإن المتأخر يكون ناسخاً للمتقدم .

(ب) تذوق أساليب القرآن والاستفادة منها في أسلوب الدعوة إلى الله : فإن لكل
مقام مقالاً ، ومراعاة مقتضى الحال من أخص معاني البلاغة ، وخصائص أسلوب
المكي في القرآن والمدني منه تعطى الدارس منهجاً لطرائق الخطاب في الدعوة إلى الله
بما يلائم نفسية المخاطب ، ويمتلك عليه ثُبّه ومشاعره ، ويعالج فيه دخيلته بالحكمة
البالغة ، ولكل مرحلة من مراحل الدعوة موضوعاتها وأساليب الخطاب فيها ، كما
يختلف الخطاب باختلاف أنماط الناس ومعتقداتهم وأحوال بيئتهم ، ويبدو هذا

(١) « الإتيان » (١٨/١) وما بعدها . (٢) التوبة : ٣٤

(٤) الحج : ٢

(٣) الحج : ١

واضحًا جليًا بأساليب القرآن المختلفة في مخاطبة المؤمنين والمشركين والمنافقين وأهل الكتاب .

(ج) الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية : فإن تتابع الوحي على رسول الله ﷺ ساير تاريخ الدعوة بأحداثها في العهد المكي والعهد المدني منذ بدأ الوحي حتى آخر آية نزلت ، والقرآن الكريم هو المرجع الأصيل لهذه السيرة الذي لا يدع مجالاً للشك فيما رُوِيَ عن أهل السير موافقاً له ، ويقطع دابر الخلاف عند اختلاف الروايات .

* * *

معرفة المكي والمدني وبيان الفرق بينهما

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين : المنهج السماعي النقلى ، والمنهج القياسى الاجتهادى .

والمنهج السماعي النقلى يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي ، وشاهدوا نزوله ، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه ، ومعظم ما ورد في المكي والمدني من هذا القبيل ، وفي الأمثلة السابقة خير دليل على ذلك ، وقد حفلت بها كتب التفسير بالمأثور ، ومؤلفات أسباب النزول ، ومباحث علوم القرآن ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ شئ في ذلك ، حيث إنه ليس من الواجبات التي تجب على الأمة إلا بالقدر الذي يُعرف به الناسخ والمنسوخ ، قال القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني في «الانتصار» : « إنما يرجع في معرفة المكي والمدني لحفظ الصحابة والتابعين ، ولم يرد عن رسول الله ﷺ في ذلك قول لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب في بعضه على أهل العلم ومعرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يُعرف ذلك بغير نص الرسول » (١) .

والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني ، فإذا ورد في السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدني أو تتضمن شيئاً من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد في السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكي أو تتضمن شيئاً

(١) انظر «الإتقان» (٩/١) .

من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وُجِدَ في السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وُجِدَ فيها خصائص المدني قالوا إنها مدنية ، وهذا قياس اجتهادى ، ولذا قالوا مثلاً: كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية ، وكل سورة فيها فريضة أو حد مدنية ، وهكذا . قال الجعبرى : « لمعرفة المكي والمدني طريقان : سماعي وقياسي » (١) ولا شك أن السماعي يعتمد على النقل ، والقياسي يعتمد على العقل والنقل والعقل هما طريقا المعرفة السليمة والتحقيق العلمى .

* * *

● الفرق بين المكي والمدني :

للعلماء فى الفرق بين المكي والمدني ثلاثة آراء اصطلاحية ، كل رأى منها بُنى على اعتبار خاص .

الأول : اعتبار زمن النزول ، فالمكى : ما نزل قبل الهجرة وإن كان بغير مكة ، والمدني : ما نزل بعد الهجرة وإن كان بغير المدينة ، فما نزل بعد الهجرة ، ولو بمكة ، أو عرفة : مدني ، كالذى نزل عام الفتح ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٢) ، فإنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم ، أو نزل بحجة الوداع كقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٣) وهذا الرأى أولى من الرأين بعده لحصره واطراده .

الثانى : اعتبار مكان النزول ، فالمكى : ما نزل بمكة وما جاورها كمنى وعرفات والحديبية ، والمدني : ما نزل بالمدينة وما جاورها كأحد وقُباء وسلع .
ويترتب على هذا الرأى عدم ثنائية القسمة وحصرها ، فما نزل بالأسفار أو بتبوك أو ببيت المقدس لا يدخل تحت القسمة (٤) ، فلا يسمى مكيا ولا مدنيا ، كما يترتب عليه كذلك أن ما نزل بمكة بعد الهجرة يكون مكيا .

(١) انظر : « الإتيقان » (١٧/١) . (٢) النساء : ٥٨

(٣) فى « الصحيح » عن عمر أنها نزلت عشية عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع - (والآية من سورة المائدة : ٣) .

(٤) فسورة « الفتح » نزلت بالسفر ، وقوله تعالى فى سورة التوبة : ٤٢ : ﴿ لَوْ كَانَ =

الثالث : اعتبار المخاطب ، فالمكى : ما كان خطاباً لأهل مكة ، والمدنى : ما كان خطاباً لأهل المدينة .

وينبنى على هذا الرأى عند أصحابه أن ما فى القرآن من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ مكى ، وما فيه من قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ مدنى .

وبالملاحظة يتبين أن أكثر سور القرآن لم تُفتح بأحد الخطابين ، وأن هذا الضابط لا يطرد ، فسورة البقرة مدنية ، وفيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٢) ، وسورة النساء مدنية وأولها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ سورة الحج مكية ، وفيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، والقرآن الكريم هو خطاب الله للخلق أجمعين ، ويجوز أن يخاطب المؤمنون بصفتهم وباسمهم وجنسهم ، كما يجوز أن يؤمر غير المؤمنين بالعبادة كما يؤمر المؤمنون بالاستمرار عليها والازدياد منها .

* * *

مميزات المكى والمدنى

استقرأ العلماء السور المكية والسور المدنية ، واستنبطوا ضوابط قياسية لكل من المكى والمدنى ، تبين خصائص الأسلوب والموضوعات التى يتناولها . وخرجوا من ذلك بقواعد ومميزات .

● ضوابط المكى ومميزاته الموضوعية :

١ - كل سورة فيها سجدة فهى مكية .

= عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكَ ﴿ نزل بتبوك ، وقوله : ﴿ وَسئَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ فى سورة الزخرف : ٤٥ ، نزل ببيت المقدس ليلة الإسراء .

(٣) الحج : ٧٧

(٢) البقرة : ١٦٨

(١) البقرة : ٢١

٢ - كل سورة فيها لفظ « كلا » فهي مكية ، ولم ترد إلا فى النصف الأخير من القرآن . وذكرت ثلاثاً وثلاثين مرة فى خمس عشرة سورة .

٣ - كل سورة فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وليس فيها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهي مكية ، إلا سورة الحج ففى أواخرها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ (١) . . ومع هذا فإن كثيراً من العلماء يرى أن هذه الآية مكية كذلك .

٤ - كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الغابرة فهي مكية سوى البقرة .

٥ - كل سورة فيها آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة كذلك .

٦ - كل سورة تفتح بحروف التهجى كـ « ألم » و« الر » و« حم » ونحو ذلك فهي مكية سوى الزهراوين ، وهما : البقرة وآل عمران ، واختلفوا فى سورة الرعد .

هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :

١ - الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والجزاء ، وذكر القيامة وهولها ، والنار وعذابها ، والجنة ونعيمها ، ومجادلة المشركين بالبراهين العقلية ، والآيات الكونية .

٢ - وضع الأسس العامة للتشريع والفضائل الأخلاقية التى يقوم عليها كيان المجتمع ، وفضح جرائم المشركين فى سفك الدماء ، وأكل أموال اليتامى ظلماً ، وواد البنات ، وما كانوا عليه من سوء العادات .

٣- ذكر قصص الأنبياء ، والأمم السابقة زجراً لهم حتى يعتبروا بمصير المكذبين قبلهم ، وتسلياً لرسول الله ﷺ حتى يصبر على أذاهم ويطمئن إلى الانتصار عليهم .

٤ - قصر الفواصل مع قوة الألفاظ ، وإيجاز العبارة ، بما يصحح الأذان ، ويشد

قرعه على المسامع ، ويصعق القلوب ، ويؤكد المعنى بكثرة القسَم ، كقصار المفصل إلا نادراً .

* * *

● ضوابط المدنى ومميزاته الموضوعية :

- ١ - كل سورة فيها فريضة أو حد فهى مدنية .
 - ٢ - كل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية سوى العنكبوت فإنها مكية .
 - ٣ - كل سورة فيها مجادلة أهل الكتاب فهى مدنية .
- هذا من ناحية الضوابط ، أما من ناحية المميزات الموضوعية وخصائص الأسلوب فيمكن إجمالها فيما يأتى :
- ١ - بيان العبادات ، والمعاملات ، والحدود ، ونظام الأسرة ، والمواريث ، وفضيلة الجهاد ، والصلات الاجتماعية ، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب ، وقواعد الحكم ، ومسائل التشريع .
 - ٢ - مخاطبة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان تحريفهم لكتب الله ، وتجنبيهم على الحق ، واختلافهم من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .
 - ٣ - الكشف عن سلوك المنافقين ، وتحليل نفسياتهم ، وإزاحة الستار عن خباياهم ، وبيان خطرهم على الدين .
 - ٤ - طول المقاطع والآيات فى أسلوب يقرر الشريعة ويوضح أهدافها ومراميها .

* * *